٤٤ ــ بلاء

كان بلاء حسنا ، وكان بلاء سيئا هذا الذى أبلاه شيخ من شيوخ الأزهر ، وصبه عالم من علماء الدين على مجلس الشيوخ أمس ، فرفع كلمة الإسلام ، وأعز دين الله ، ونشر لواء الحق ظافرا منصورا ، وأظهر نور الله واضحا باهرا ، لا يغشاه ظل ، ولا تخفيه ظلمة ، ولا يحول بينه وبين الناس غيم صفيق أو رقيق ، ولكنه على هذا كله لم يصنع شيئا ولم يفد الإسلام قليلا ولا كثيرا .

كان بلاء حسنا حقا هذا الذى أبلاه أمس ، شيخ من شيوخ الأزهر ، وصبَّه أمس عالم من علماء الدين على مجلس الشيوخ ، وكيف لا يكون بلاء حسنا هذا الجهد العنيف الذى بذله الشيخ أمس منذ ابتدأت الجلسة إلى أن ختمت فقام على المنبر يدعو إلى كتاب الله ، ويذود عن كتاب الله ، ويلح فى تحفيظ كتاب الله ، ويشفق أن يضيع كتاب الله . والشيوخ يستمعون له أول الأمر ، ثم لا يلبثون أن يضيقوا به شيئا فشيئا ، ثم يستحيل هذا الضيق إلى تبرم ، ثم إلى سخط ، ثم إلى هياج ، ثم إلى تفرُّق عن الشيخ وانسحاب من الجلسة ، ويكون أول المتفرقين ، والسابق بين المنسحبين صاحب الفضيلة مولانا الأكبر شيخ الجامع الأزهر .

تبارك الله ، ما أثقل كلام الشيوخ على آذان الشيوخ ! وما أضيق رجال الدين ببراعة رجال الدين ! تبارك الله ، ألم يكن يجب لهذا المجاهد الصادق فى سبيل الله ، ولهذا الخطيب الناطق بحجة الله ، ولهذا البطل الذائد عن دين الله ، ولهذا الفارس المدافع عن كتاب الله ، ألم يكن يجب له شىء ولو قليل جدا من التشجيع والتأييد يبذله له ، ويمده به صاحب الفضيلة مولانا الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، الذى جعلت الظروف إليه حماية الإسلام ، ورعاية حرماته ، والدفاع عن القرآن ، والذود عن ذماره ، ولكن شيخ الأزهر سخط وثار ، ثم نهض فطار ، وأسلم الشيخ الخطيب للتقريع والتأنيب ، فجعل الشيخ يصول ويجول ، ويسكت ويقول ، ويقصر ثم يطول . والأعضاء من حوله بين مقبل عليه ، مصغ إليه ، وبين معرض

---

(١) الكوكب فى ١٣ ــ ٦ ــ ١٩٣٣

عنه ، نافر منه ، حتى إذا بلغ به الجهد أقصاه ، رفق به منهم رفيق ، فدعا له بقدح من ماء شربه الشيخ فعاد إليه النشاط وقويت فى جسمه حركة الحياة ، فانطلق لسانه وتدفق بيانه ، وعظم سلطانه ، وطغى سيله ، واشتد ويله ، حتى صاح وزير التقاليد « واغوثاه ، واغوثاه ، أنحن فى مدرسة من مدارس اللغة ، أم فى مجلس من مجالس التشريع » ؟.

والشيخ يزأر ويهدد ، ويضطرب ثم يستقر ، ويذكر المواضيع وصوابها الموضوعات ، ويذكر المظاريف وصوابها الظروف ، ويذكر الكيلو متر ويريد أن توضع مكانها الذراع ، ويذكر مجانا وصوابها بالمجان ، ويذكر الجغرافيا وصوابها تقويم البلدان .

ووزير التقاليد يسكت فيطيل ، ويعتدل ثم يميل ، ورئيس المجلس ينبِّه ، والشيخ لا ينتبه ، وعضو من المجلس يهبط على الشيخ فيزعق الشيخ فى وجهه زعقة ترتج لها أنحاء المجلس : لأمضين فى الكلام حتى الصبح ، ويمضى ثم يمضى . وقد أخذ المجلس وجوم ، وتساقطت على المجلس هموم ، ويرقى إلى الخطيب شيخ من رجال الدين ، ثم شيخ آخر من رجال الدين . هذا يستعطفه ، وهذا يستكفه عن القول ، ولكن الشيخ لا يعطف ولا يكف ، بل يمضى . يا لها من جذبة روحانية رائعة ، بسطت سلطان الشيخ على الميدان حتى خلا من كل منازع . ثم يقترح الشيخ تعديلا لمادة من مواد القانون ، ويريد الشيخ بهذا التعديل أن يفرض على أبناء المسلمين جميعا حفظ القرآن ، ويأخذ الشيخ فى الدعوة إلى الله ، وفى إنهاض الهمم ، وإثارة الحفائظ وتنبيه الشعور ، وإذكاء العواطف . فيستجيب للشيخ رجال ليس منهم صاحب الفضيلة مولانا الأكبر شيخ الجامع الأزهر والشيخ ماض فى إنهاض الهمم والدعوة لله ، ولو قد خلِّى بين الشيخ وما أراد لظفر وانتصر ، وأصبح حفظ القرآن كله فرضا على أبناء المسلمين ، ولكن الجلسة ترفع ، ويخرج الرئيس ويتبعه الأعضاء ، ويخرج الشيخ مع الخارجين ، ثم يعود مع العائدين ، ثم يؤخذ الرأى فإذا حفظ القرآن فرض كفاية ، لا فرض عَين ، يقوم به من أراد من المسلمين كما أحب القانون ، لا كل المسلمين كما كان يريد الشيخ . والشيخ مصرٌّ على رأيه ملحٌّ فيه ، ولكن

الاتفاق قد تم خارج الجلسة ، وأمن المجلس من أن يؤخذ على غرَّة . وانتهى الأمر كما بدأ ، وذهب جهد الشيخ الجاهد فى غير طائل ، وضاعت على المجلس جلسة كاملة لو لم يشغلها الشيخ ببيانه الرائع ودفاعه البارع لأتيح للأعضاء أن يفرغوا لدرس القانون ، وتمحيص طائفة من مواده كانت تحتاج إلى التمحيص .

وكان نفر من رجال التعليم الإلزامى قد أقبلوا ليشهدوا المجلس ويسمعوا ما يقال فيه حول هذا الموضوع ذى الخطر العظيم ، فرأو الشيخ وسمعوه ، ولم يروا المجلس ولم يسمعوه ، وإذا أبى الله توفيقه على بعض الناس دفعهم إلى الإغراق فى الصمت أو إلى الإغراق فى الكلام ، فأضاعوا الحق ، وعطلوا المنفعة بالأمرين جميعا .

فى هذه الجلسة عبرة لمن أراد أن يعتبر ، وموعظة لمن أراد أن يتعظ ، ودرس لمن أراد أن يفهم الدروس . فيها أن الإغراق فى الصمت كما كان يفعل شيوخ الأزهر مضيع للحق ، معطل للمنفعة . وأن الإغراق فى الكلام كما فعل الشيخ أمس مضيع للحق ، معطل للمنفعة . وأن خير الأمور أوسطها ، وأن الإسراف لا خير فيه مهما يكن مصدره ومهما تكن غايته ، ومهما يكن موضوعه .

وفيها أن صاحب الفضيلة مولانا الأكبر شيخ الجامع الأزهر قد وقف أمس موقفا لم يكن ينبغى له ، فقد كان من الحق عليه ، وعليه قبل أى إنسان آخر أن يقول فى هذا الموضوع كلمة رجال الدين فيقرُّ بها الأمر فى نصابه ، ويبيِّن للمجلس طريقة واضحة جلية ، لا عوج فيها ولا التواء ، ولكن الشيخ راغ وراغ ، وآثر الصمت ثم آثر الانسحاب ثم عاد مؤثرا للصمت ، فلا هو غاب عن الجلسة ، ولا هو شهدها ، فكان شهوده نافعا مفيدا ، كان من الحق عليه أن يأخذ صاحبه بالصمت ، وأن يبيِّن أن الله عز وجل أرفق بعباده من أن يفرض عليهم جميعا حفظ القرآن كله ، وأن الخير فى أن تنهض بحفظ القرآن جماعة صالحة من أبناء المسلمين كما أراد القانون ، ولكن الشيخ أشفق أن يجهر بهذا الحق فيتهم بالتخذيل عن الدين ، والتقصير فى الذود عنه ، وأشفق أن ينضم إلى الشيخ فيغضب الوزير ويسخط أصحاب السلطان ، وآثر الشيخ أن يقف موقفا غريبا ،

أقل ما يوصف به أنه كما يقول القرآن الكريم : ﴿ لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء ﴾ كانت تنقصه الصراحة والصراحة فى الحق ألزم الأشياء لرجال الدين . ولكن من ذا الذى ينتظر من مولانا الأكبر موقفا غير موقفه ؟ وهل أخطأ الشاعر القديم حين قال :

وكتيبـــة لبستهـــا بكتيبـــــة حتى إذا التبست نفضت لها يدى

لقد نفض الشيخ يده أمس فلم يبق فيها شيء . أما المجلس فلم يكن موقفه أقل غرابة من موقف الشيخ الأكبر . كان ضيقا بالخطيب ، مسرفا فى الصبر عليه . ولعله كان خائفا منه ، وكيف لا يخاف وهو يذكر الدين ، ويظهر الدعوة إليه ، والشيخ الأكبر خائف يترقب ، لا يستطيع أن يؤيد صاحبه ، ولا أن يخذله .

وكذلك مضى هذا القانون فى غير درس ولا تمحيص ، لأن شيخا من شيوخ الأزهر أراد أن يظهر الغيرة على الدين ، فأسرف فيما أراد . وأراد المجلس أن يصبر عليه ، فأسرف فى الصبر . وضاعت مصالح الناس بين انتفاش الشيخ وانكماش المجلس . فاللهم اهد القوم إلى حسن القصد فى تقدير الأمور .